

وقائع ما رثناك ولديك

للكاتب الشهير ولتر سكوت
بقلم الأستاذ محمد كامل حجة

بمعاونتهم بأن يتجنبوا الاختلاط
بشيطان هرثس بشكل مباشر أو غير
مباشر

إن المشاهدين والممثلين في المسرح
الآنى كانوا ثلاثة فتيان يحتطبون
ويحولون أحطابهم إلى فحم ، وكانوا

عائدين إلى كوخهم ، وكان حديثهم دائراً حول شيطان
هرثس وعن الراهب الذى كان يلعب هذا الشيطان
الوديع المسالم فرجه الأهلون بالحصى والحجارة
قائلين له : إذهب لشأنك لتلعب الشياطين في بلاد
غير بلادنا ، ثم جرم الحديث إلى أن الذين يربطون
علاقاتهم بهذا الشيطان تكون آخرتهم مشؤومة
واستشهدوا بجواد السباق الأسود الذى منحه شيطان
هرثس إلى الفارس أ كبرت دوراً بتوالد والذى
بفضله حاز قصب السبق في سباق يريم ولكنه سقط
في الهاوية بسببه ولم يعلم أحد بمخبرها إلى الآن

كان مارتان أصغر إخوته الحطابين الذين سبق
ذكرهم يخالف أخويه الأكبر والأوسط في الاعتقاد
بالشيطان ، وكان جسوراً جريئاً ماهراً في جميع
الأعمال التى يقوم بها الجلبون وكان مقداماً في
كل عمل يطلب منه أعمال المجازفة أو القوة وكان
يضحك من حياء أخويه ويتساق الجبال بكل
سهولة وخفة .

قال لأخويه وهو يحاورها : لا تقصا على هذه
الخرافات فإن للشيطان طيب وهو يمش بيننا
كأحد الفلاحين ، وكان يتساق الصخور ويجوب
الجبال كأنه يصطاد أو يرعى الماعز ، ولما كان يحب
غابات هرثس ومناظرها الطبيعية الخلابة فلا يتأني
أن يكون عديم الاهتمام بحفظ ما كنيها .

إن الوحشة التى سادت غابات هرثس بألمانيا
ولا سيما الجبال المسماة بلوكيرج أو بروكنبرج قد
جمت من هذه الأخيرة مسرحاً ممتازاً للأقاصيص
التي تسرد فيها أخبار السحرة والجن والشياطين
والخيالات . وأغلب سكان هاته المقاطعة حطابون
أو عمال في المناجم . وهذا النوع من المعيشة قد
جعلهم بمتقنون بالخرافات ويمزجون الحوادث الطبيعية
إلى السحر والجن والشياطين

ومن الحكايات التى ذاعت في هذه البلاد
التوحشة والتي يشاع فيها أن غابة هرثس يسكنها
شيطان ويصورونه بشكل عملاق آدمى متوج الرأس
وبوسطه حزام من أوراق البلوط ويده شجرة
سنوبر قلمت من الأرض يجذورها . ويزعم كثير
من الناس أنهم شاهدوه مراراً في أطراف واد
صغير يتنزه فيه أو في سفح الجبل . وهذا الرعم
مقبول عندهم ولكن المصر الحاضر لا يقبله ويمزوه
إلى خداع النظر

وكانوا بمتقنون في المصور القديمة أن هذا
الشيطان كان يتاجر مع بنى الانسان . ويقال في تقاليد
تلك البلاد السابقة إنه كان يتدخل في أعمال الناس
فتقوده أهواؤه تارة إلى الخير وطوراً إلى الشر ، كما
أنه لوحظ أن منحه تكون مع الشر مشؤومة
وكان القس يسرون على أتباعهم وهم

الأمر أن يدعو أخويه ولكنه رأى أن أخاه الصغير يخالفهم في الرأي وأنه لا يستطيع أن يوقف جورج دون أن يقلق مارتان ، ثم ظن أن مارآه ربما كان نتيجة وهم أوجده الحديث الذي دار بينهم عن الشيطان . وقد ظن أنه لا يستطيع أن يعمل شيئاً أحسن من الصلاة وأن ينتظر بقلق وفزع هذه المشاهدة . وبعد ما استمرت النار وتوهجت ثم انطفأت شيئاً فشيئاً وخيم الظلام لبث مضطرباً مدة نوبته مما شاهده .

حل جورج محل ما كس الذي ذهب لينام بدوره فشاهد النار التي رآها أخوه ، وكان حول النيران أشخاص تصدر منهم إشارات كأنهم يقيمون حفلة رمزية

ولو أن جورج كان أشد فطنة من أخيه الأكبر ولكنه كان جريئاً مقداماً ، وقد صمم أن يقترب من هذه المعجبة ليختبرها فاجتاز قناة صغيرة تجري في هذا الوادي واقترب من النار حتى أمسى على رمية منهم منها فوجدها متأججة كما كانت

وكانت الأشخاص المحيطون بها أشبه بالأشباح التي نراها في أحلامنا ولأول وهلة تحقّق أن هؤلاء ليسوا من أهل الدنيا وقد رأى بينهم عملاقاً هائلاً بيده شجرة صنوبر قلمت بجذورها كان يستعين بها العملاق في إسمار النار ولم يكن عليه من الملابس غير تاج وحزام من أوراق البلوط . ولما عرف جورج شيطان هرتس هلع فؤاده لأنه كان طبق الصورة التي كان يتحدث بها الرعاة والصيداؤون الذين رأهم يجولون في الجبال فرجع ممعناً في الهرب وبعد قليل من التفكير ونح نفسه على هذا الجبن وقرأ من مارآه من الزبور : « فلتبارك جميع الأمم الآلهة »

وحينما يكون خبيثاً شقيماً متلكماً فكيف يكون تصرفه مع من ينتفعون بمنحه دون أن يتمهدوا له بأى تعهد ؟ وحينما تورد فحمك في السبك لديره بليز ذلك الشيخ الذي لا يفوه لسانه إلا بالتجديف ، أفلا تفضل أن تأخذ منه تقودك ولا تأخذها من القسيس ؟ فليست إذن منح هذا الشيطان التي تعرضك للأخطار ولكن سوء استعمالها والتصرف فيها . أما أنا فانه إن ظهر لي في هذه الساعة سواء أكان باسمك أو عابساً فأنى أستمع في حفر الأرض قبل أن يبرح مكانه ، وسأحسن التصرف في نعمته التي يمن بها على وآمل أن أكون في حماية ورعاية فرد أقوى منه .

فأجابه الأخ الأكبر بأن اللعاع الذي ينال بطريق غير مشروع يندر أن يتصرف فيه صاحبه على أحسن وأفضل وجه . فرد عليه مارتان : إننى إذا امتلكت جميع كنوز هرتس فان ذلك لا يغير شيئاً في طباعى وصفاتى .

فقال له ما كس : يلزمك أن تشكّم باحتراس وتحفظ حينما تخوض في مثل هذا الموضوع . وأراد أن يحول الحديث إلى موضوع آخر وانتقل إلى سيد الدياب الذي سيشرح فيه . وقد استمر بينهم الحديث إلى أن وصلوا إلى كوخهم القائم على سفح أكمة بواد ضيق بجبال يروكنبرج ، ثم حلوا محل أختهم في مراقبة تحضير الفحم وكانوا يتناوبون مراقبة الفحم فينام اثنان ويراقب الثالث .

كانت نوبة ما كس والديك فسهر الساعتين الأوليين وقد دهش حينما شاهد على أكمة أمام كوخهم وحولها أشخاصاً كثيرين يدورون وتصدر منهم إشارات غريبة . ففكر في بادىء

وأتخذ طريق الأكمة حيث شاهد النار ولكنه دهش حينما لم يجد للنار أثراً

أضاء الفجر بأشتمته الضئيلة ذاك الوادى ، ولاحظ جورج أن جبينه ينضج عرقاً ، بارداً وقف شعر رأسه من الفزع ووصل وهو يرتعد إلى المكان الذى شاهد فيه النار وكان به شجرة بلوط كبيرة كانت تظهر كأنها وسط النيران فلم يجد أثر أقدام ، ولاحظ أن الكلاً والأزهار البرية لم تمس ولم يهشم منها شئ وكانت أوراق البلوط مخضلة بتقطر الندى رجع إلى كوخه وهو يرتعد من الهول وفكر مثل أخيه الأكبر وصمم ألا يتفوه بشئ مما رآه خوفاً من أن يشير فيه تطاماً تصحبه المجازفة

جاء موعد سهرة مارتان عند صباح الديك مؤذنا برحيل الليل واقترب الفجر . اختبر استعمار التنور الذى يجهز فوقه الفحم فوجده ضعيفاً لأن مشاهدة جورج للشيطان وما حاق به من المصاعب أنسياء واجبه من مراقبة النيران فأراد أن ينادى أخويه ولكنه رآهما فى نوم عميق فعالج النار وحده ولكن الأخشاب التى استعملها كانت رطبة خضراء وانتهى الأمر بأن خبت النيران . طفق يمدو باحثاً عن حطب جاف ولما رجع وجدها قد انطفتت وكان هذا حادثاً جليلاً يفقد عمل يوم . أخذ يقدح زنده فلم يفلح لأنه تشبع بالرطوبة . فلم يجد مناصاً من استدعاء أخويه ولح على حين غفلة ضوء مفاجئ فى الكوخ ففتح الباب فإذا هى الظاهرة العجيبة التى أذهلت أخويه ما كس وجورج

ظن فى بادئ الأمر أن اللوهر هاوسرس الدين كانوا معهم فى شجار مستمر لما انتابهم من غيرة الصناعة قد أغاروا على أرضهم فى الغابة ليسرقوا ما وصلت إليه أيديهم ، ففكر فى إيقاف أخويه

ليؤدبوا هؤلاء الجريئين ولكنه حينما شاهد إشارات اللتئين حول النار كأنهم يعملون عملاً غير فكره واستنتج أن هذه حادثة غير حقيقية — مهما كانوا رجالاً أو شياطين ومهما كان شغلهم سأذهب إليهم أسألهم جذوة من النار أضرم بها التنور . ورفض أن يوقظ أخويه وخشى أن يحول استحياء أخويه دون مقصده ثم تناول رمحاً مما يصطادون به الديبة وذهب وحده ليجمع حداً لهذه الواقعة

سار بشجاعة تفوق شجاعة أخيه جورج واجتاز القناة ثم صعد الأكمة وتقدم سوب هذه الجماعة وعرف أن الرجل الذى يتزعمها ليس إلا شيطان هراتس فأصابته رعدة كانت الأولى فى حياته ولكنه تذكر أنه طالما تمنى هذه الفرصة السانحة فلذلك تجددت شجاعته ، فتقدم نحو النيران بثبات وجراءة فظهر له أن هؤلاء ظهرت عليهم ملامح غريبة خارقة للمادة وقابلوه بضحك متواصل وقع فى أذنه مزججاً عنيفاً

— من أنت ؟ سأله العملاق وقد ظهرت على سحنته الدميعة ملامح الغضب والشدة

— أنا مارتان ولديك الفحام ، وقد أجب بكل جرأة وبسالة ، ومن أنت يا هذا ؟

— أنا ملك الجبال والمناجم . وكيف تجاسرت على تكبير أسرارى ؟

— قد أتيت لأطلب جذوة نار لأوقد بها تنورى ثم سأله بكل جرأة : وما هى الأسرار التى تحتفل بها هنا ؟

— فرد عليه الشيطان مازحاً : إننا نحتفل بقران هرمس بالتنين الأسود ، فهيا خذ النار واذهب لشأنك فما من مخلوق يطيل فينا النظر إلا ويهلك

المظالم الذين في جواره . ولشجاعته في الحرب وخصومة أعدائه لم ينل منه أعداؤه الذين كانوا يحسدونه على علوه الفجائي وغروره العاتي . لم يلبث مارتان ولديك أن أظهر قدرة جديدة تدل على أن قليلاً من الناس من ينظر في عواقب ما تنتجه الثروة المفاجئة ، إذ ظهرت عيوبه التي أخفاها الفقر ، ففسدت أخلاقه ، وأصبحت الأهواء تجر بعضها ، فأيقظ شيطان البخل شيطان الكبرياء ، واستعان الاضطهاد بالقسوة والوحشية

استمر مارتان في غيه وجبرأه فخذ عليه الناس من سراة وفقراء لكونهم رأوا رجلاً سافلاً علا نخاة ونفذ فيهم قوانين الاقطاعيات بقسوة همجية انكشفت عيوبه وأصبح ممقوتاً حتى من رجال الدين الذين كانوا يلقبونه بشريك الشياطين والساحر لأن ثروته تضخمته بأساليب جهنمية ولم يمنح جزءاً صغيراً منها إلى الكنيسة حتى يبارك في باقي ثروته . وقد حصلت له حادثة كانت سبباً في سقوطه

أقام دوق برونسويك ، وهو الحاكم ، برجاساً ودعا إليه نبلاء الألمان ، وكان مارتان ولديك متقلداً أغفر الأسلحة مصحوباً بأخويه متبوعاً بمحاشية كبيرة العدد والعدد . وقد ساقته وقاحته لأن يظهر وسط الفرسان النبلاء وأن يطلب منهم أن يدخل في المضمار ، فارتفع ألف صوت قائلين : لا نستطيع أن نتحمل اختلاط فخام بالفرسان النبلاء في حلبة ألعاب الفروسية ؛ فاغتاز مارتان وغاب صوابه واستل سيفه وضرب الفارس الذي عارضه في دخوله إلى المضمار ، وشهر مائة فارس سيوفهم في الحال لمعاينة هذه الجريمة ، فدافع ولديك دفاع الأسود ثم قبض عليه في النهاية وحوكم أمام ماريشالات البرجاس ،

أنشأ مارتان سنان ربحه في قطعة كبيرة من الخشب ملتهبة وعاد بها إلى كوخه وسط ضحك مستمر وقهقهة عالية دوى صوتها في الوادي ثم وضعها وسط الأحطاب الجافة ليوقد تنوره ، ورغماً من جهده المتواصل وكبره الكبير انطفأت الحشبة المستمرة . ثم التفت إلى النار الموهودة فرآها مازالت مستمرة فوق الأكمة فظن أن الشيطان أراد أن يلعب معه دوراً فعاودته جرائنه وصمم أن يمود إلى الأكمة ليأخذ جذوة أخرى فأخذها دون أن يصادف أية معارضة ولكنه لم يفلح في إشعالها كالكرة الأولى وأراد أن يجرب المرة الثالثة فأخذ قطعة كبيرة وذهب فسمع الصوت يخاطبه : حذار أن تمسود المرة الرابعة

حاول أن يسمر النار وبذل كل جهده ولكنه أخفق . يئس وقطع الأمل وارتدى على سريره الذي اتخذ من أوراق الأشجار وقرر أن ينتظر إلى الصباح ليطلع أخويه على جميع ما حصل له فنام من التعب واضطراب فكره . استيقظ في الصباح على أصوات الفرح والدهش وصراخ أخويه فأنهما حينما شاهدا التنور خامداً أخذوا يخرجان الخشب منه ويمالجان إيقاده فوجدوا في الرماد ثلاث سبائك ضخمة ففرقا في الحال أنها من الذهب الخالص

ولما حدثهما مارتان عن الكيفية التي بها أصبحت هذه الثروة في حوزتهم هدأت أعصابهم لأن ما رآه فيما مضى جعلهما يشقان بمحدث أخيهما ولا يشكان فيه ، وقد سوات لهما نفسهما أن يشاطرا أخاهما هذه الثروة

اعتبر مارتان نفسه رئيس الأسرة واشترى ضياعاً وغابات وبنى قصرًا عظيمًا وحصل على براءات الشرف ومنح نفس الامتيازات التي تمنح للبارونات

في غابة صنوبر على قارعة الطريق ، فتلقاها راهب بالترحاب وكان حافي القدم طويل الدقن ، ولم يمش مارتان غير الوقت اللازم لاعترافه لأنه لم يعترف منذ أقبلت عليه النعم الفجائية مع أن مارتان كان يساعد الفوغاء على رجم هذا الراهب المسكين وطرده من قرية مور حنبرودت قبل هذا التاريخ بثلاثة أعوام . وبلغ أن هذه الأعوام التي أقبلت فيها السمادة بكل تسامح كان لها ارتباط خفي بالرحلات الثلاث التي ذهب إليها مارتان ليرى النار الغربية

ثم دفن مارتان في الدير وترهب أخواه إلى أن وافاها الأجل المحتوم ، وبقيت أرض مارتان خلاء ولم يقبل أن يمسها أحد إلى أن وضع يده عليها الامبراطور ولم يقترب الخطابون ولا عمال المناجم من أطلال القصر معتقدين أنه أصبح مأوى للشياطين وقد جعل مارتان ولديك من نفسه مثالا للمصائب التي يستهدف لها كل من حصل على ثروة بطريقة غير مشروعة ثم أساء التصرف فيها محمد كامل صباغ

وحي بغداد

صور وجدانية وأدبية واجتماعية

بفلم الدكتور زكي مبارك

يطلب من المكاتب الشهيرة
وثنى النسخة عشرة قروش

وحكم عليه بقطع يمينه ونجريدته من ألقاب النبلاء وأن يطرد من المدينة

وحينما جرد من سلاحه ونفذ فيه الحكم ترك للرعاع فاتبعوا هذه الضحية البائسة التي جنى عليها الطمع وطفقوا يسبونونه صائحين : « أيها الساحر الظالم » وانها لوا عليه بأفزع الشتائم وأشنع الاهانات فتركته حاشيته ووات الأدبار . ثم أقبل أخواه وخلصاء من أيدي الفوغاء ، ولما شفقوا غليل انتقامهم منه تركوه حينما رأوه مشرقاً على الاغماء من فقد دمه وتغذيته ، وقد قسا عليه أعداؤه حتى أنهم لم يسمحوا بنقله إلا على عربة فحم من التي كان يشتغل عليها حينما كان فحاما فوضعه أخواه على حزمة من قش فوق العربة وأرادا أن ينقلاه إلى مكان أمين قبل أن يريحه الموت من آلامه

ولما سارت أسرة ولديك بهذه الطريقة الحزينة واقتربوا من بلادهم الأصلية رأوا عن بعد في المضيق الواقع بين الجبال شخصاً يتقدم نحوهم ظنوه في بادئ الأمر شيخاً هماً ولكنه كلما كان يقترب ظهرت قامته الهائلة ثم اختفت عباءته من كتفيه واستحالت عصاه إلى شجرة صنوبر قلعت بجذورها ، ثم ظهر أمام أعينهم شيطان هرتس فارتعدوا من الهول ، وحينما وقف أمام العربة التي حملوا عليها أخاهما ظهرت على ملامحه هيئة أمير مختفر ، ثم قال بنجث ودهاء لمارتان : « كيف وجدت النار التي أشعلها خبيثي ؟ » وما أتم قوله حتى جدد الدم في عروقهما من الخوف ولكن الجريح عاوده نشاطه وقوته ونهض ولوح بقبضة يده الباقية مهدداً الشيطان ؛ وما كان من هذا اللعين إلا أن قهقهه بتسكع وخبث ، ثم اختفى عن العيون

تملك الفرع الأخوين ، ثم اتجها نحو دير قائم